

يقظة القلوب مع سورة (ق)

تأليف

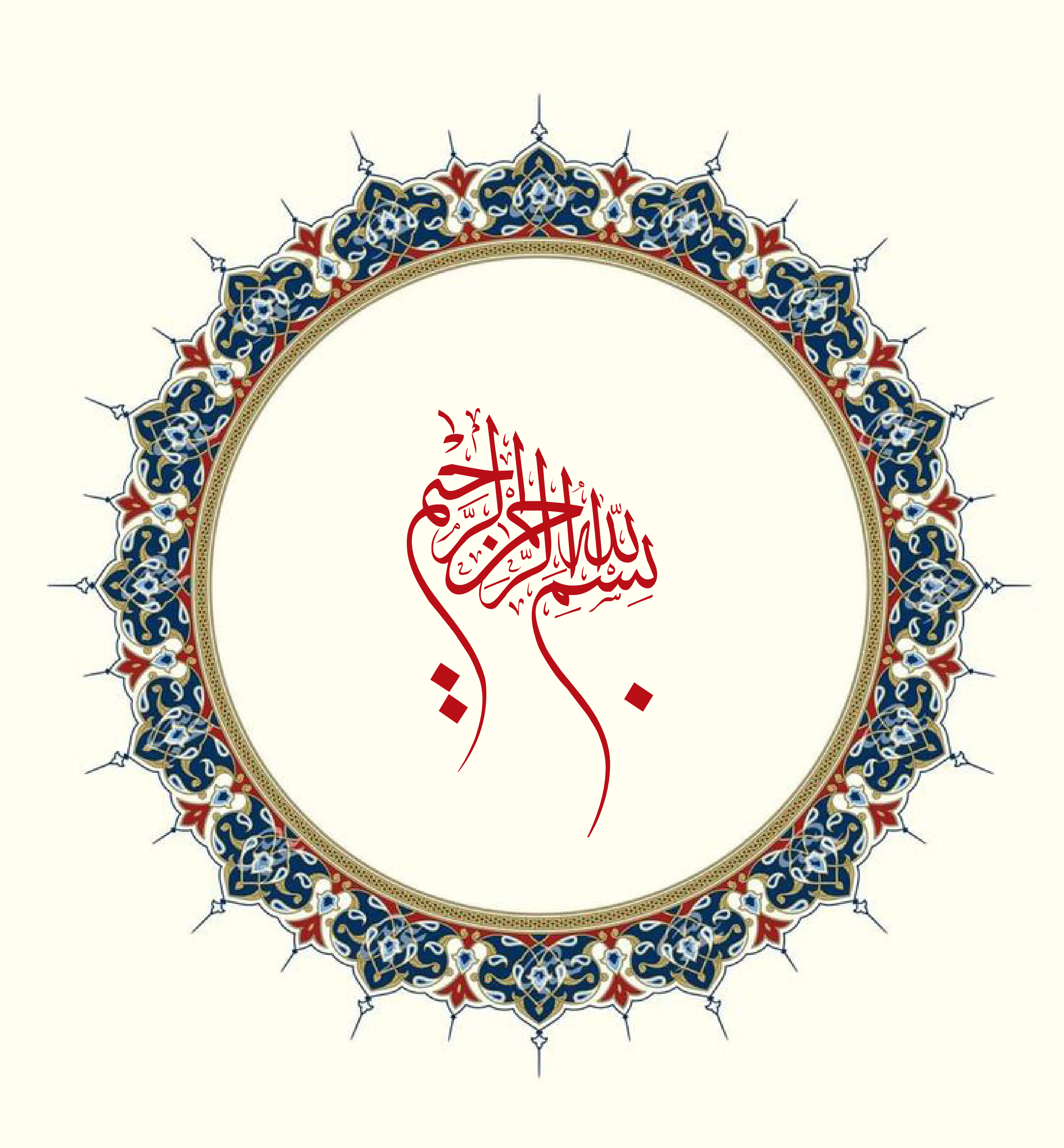
سناء بنت عبد الواحد خياط

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ/٢٠٢٥م



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف


بسم الله الرحمن الرحيم



تمهيد

إن القــرآن هو روح المؤمن وأُنســه في الدنيا، وهو النور الذي يُضـيء ظلمات الصدور، والرفيق الـذي لا يخذل في الطريق إلى الله، ومـا أعظمها من رحمة أنزلها الله تعالى وأسـبغها على عباده حين أنزل كتابه على خِيرة رسـله محمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقد ابتدأ الله تعالـى سـورة النِّعم (الرحمن) بقوله جلَّ شـأنه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢﴾ [سورة الرحمن: ١-٢]، فكان تعليم القرآن أول مظاهر رحمته، فالإنسان بلا قرآن جسد بلا رُوح.

ولهـذا، فإنّ أعظـم النِّعم التي يتقلّب فيها قلـب المؤمن، هي نعمـة دوام الاتصال بـكلام الله، والعيش في ظِلاله، تلاوةً وتدبُّرًا، حفظًا وعملًا.

وقـد اختـرت أن أواصـل رحلتي في هـذا المضمـار المبارك - مضمـار المتدبّريـن - مع سـورةٍ تهزّ القلوب منـذ أول حرف،

وهـي أول سـور المفصَّـل والبوابـة التي يدخـل منهـا التائبون، العائدون من التيه؛ إنها سورة (ق).

في هذا الكتيِّب، سـتنطلق روح القـارئ - بإذن الله - في رحلة تدبّرية، يقف ويتأمل كل آية، من أجل التغيير والإنابة والعودة إلى الله ... وفتح باب جديد حيث القلب يُبعَث حيًّا من جديد.

واللهَ أسـأل أن يمـلأ قلوبنـا إيمانًـا، وأن يرزقنا لـذّة القُرب منـه، وأن يجعل هـذا العمل المتواضع خطـوةً مباركة في ميدان المتدبريـن، عمـلًا بقوله تعالـى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [سورة ص: ٢٩].

وكتبته

سناء بنت عبد الواحد خياط



بين يدي سورة ق

سورة (ق) سورة مكية، طالما قرأها وتلاها وبيَّن أسرارها نبينا محمد عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ على منبره.

وهي سورةٌ قصيرةٌ في المبنى، زاخرةٌ في المعنى، توقِظ النائم، وتُفزِع الغافل، تقرع القلوب، وتبثّ في الرُّوح يقظة الآخرة وحسن الاستعداد للقاء رب العباد.

سورة تقف أمامها الأرواح وَجِلة، والقلوب شاخصةً. تضع المؤمن أمام مرآة الحقيقة الكبرى:

* **هل أنت مستعد؟**

* **هل نسيت أن لك صحيفة أعمال**، وأنّ على عاتقك مَلَكين؟

* **أتعلم أن كل لفظ خرج من فمك محفوظ؟** ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ق: آية ١٨].

من هنا تبدأ الرحلة، فافتح هذا الكتيِّب لتغلق أبواب الغفلة، وافتح من خلاله بابًا إلى الله... وكُن عبدًا تائبًا، أوّاهًا منيبًا.



ما ورد في سبب نزول السّورة

ورد أنَّ اليهـود كانت تقول: إنَّ الله خلق الخَلق في ستَّة أيامٍ، ثمَّ استراح في اليوم السَّابع، وهو يوم السّبت يوم الرَّاحة عندهم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨﴾ [سورة ق: ٣٨].

وروى عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ الْيَهُودَ أَتَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَتْ عن خلق السموات وَالْأَرْضِ فَقَالَ: «خَلَقَ الله الْأَرْضَ يَوْمَ الْأَحَدِ وَالاثْنَيْنِ، وَخلقَ الْجبَالَ يَوْمَ الثُّلَاثَاء وَمَا فِيهنَّ مِنَ الْمَنَافِع، وَخلَقَ يَوْمَ الْأَرْبعَاء الشَّجرَ وَالْمَاءَ، وَخلقَ يَوْمَ الْخَمِيس السَّمَاءَ، وَخلَقَ يَوْمَ الْجُمُعَةَ النُّجُومَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ»، قَالَتِ الْيَهُودُ: ثُمَّ مَاذَا يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: «ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ»، قَالُوا: قَدْ أَصَبْتَ، لَوْ تَمَّمْتَ: ثُمَّ اسْتَرَاحَ، فَغَضِبَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَضَبًا شَدِيدًا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[1].

(١) أسباب نزول القرآن للواحدي (ص٣٩٧).

سورة (ق) في المجامع الكبيرة

وقـد ورد أنَّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ كان يُكثِر من قراءتها في خطبة يوم الجمعـة، حتى حفظها عنه بعـض الصّحابة من ترديـده لها، كما رُوِيَ عـن أمِّ هشـام بنت حارثة بـن النعمـان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنَّها قالت: «**مـا حَفِظْـتُ (ق) إلَّا مِن في رَسـولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْطُبُ بِهَا كُلَّ جُمُعَـةٍ، قالَـتْ: وَكانَ تَنُّورُنَـا وَتَنُّورُ رَسـولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدًا**»[1].

وروى مسلم عن جابر بن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «**أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقـرأ في الفجـر بـ ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ١﴾**»[2]، وقوله: «**في الفجـر**» يعني به صلاة الصّبح؛ لأنّها الّتي يصلّيها في المسـجد في الجماعة، فأمّا نافلة الفجر فكان يصلّيها في بيته.

كمـا كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يُردّدهـا في صـلاة عيـدَي الفطـر والأضحى، ففي مسلمٍ «**أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب سَأَلَ أَبَا وَاقِدٍ اللَّيْثِيَّ: ما كانَ يَقْرَأُ به رَسولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأَضْحَى وَالْفِطْرِ؟ فَقَالَ:**

---

(١) مسلم (٨٧٣).

(٢) مسلم (٤٥٨).

كانَ يَقْـرَأُ فِيهِمـا بــ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾، وَ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾ [سورة القمر: آية ١][1]. وهي من السّور الّتي سُمّيت بأسماء الحروف الواقعة في ابتدائها.

تضمنت السورة من أصول الإيمان ما أوجبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أن يقرأ بها في المجامع العظام؛** وكان من كثرة قراءته لها يقرأ بها في صلاة الصبح[2].

وذكر ابن كثير[3] أنَّ النّبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **كان يقرأ سورة (ق) في المجامع الكبيرة كالعيد وصلاة الجمعة؛** لاشتمالها على الخلق والبعث والنّشور والحساب، وحديثها عن الثّواب والعقاب، وتناول آياتها للتّرغيب للمؤمنين والتّرهيب للكافرين المُنكِرين على السّواء.

كما كان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ **يقرأ سورة (ق) ويردِّدها في الصّلاة لِما فيها من عِبَر ومواعظ،** ولما حَوَت من آيات تحرك القلوب، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا ممن يتعِظ بما جاء في القرآن.

---

(١) مسلم (٨٩١).

(٢) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٦٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٣).

وابتدأت السـورة بحرفٍ واحـد، لكنها حملت من المعاني ما يفـوق وصفـه في كتب أو مجلـدات، ثم لا تلبـث أن تفتح أبواب القيامة والموت والحسـاب، فتعرّفنا بأنفسنا من جديد، وتدعونا لننظر في صحائفنا وأعمالنا قبل أن تُعرَض علينا أمام ربنا تعالى في يوم عصيب.

يجد القارئ المتدبِّر في كل آيةٍ من آياتها وَمضةً تُشعِل البصيرة، وتُعيد ترتيب الأولويات، وتدفع المؤمن الوَجِل للاسـتعداد ليوم الحساب.



أهمية القرآن وأثره في إحياء القلوب

وقد استهلَّت بالحديث عن القرآن، وانتهت بالتذكير به؛ لأن القرآن فيه الحُجة؛ التي بها نقوى، ولا يوجَد أنفع ولا أبلغ من التذكير بكلام الله العزيز، وكذلك فيها بيان طريق الحق والهدى للناس. وقوة البرهان التي أنزلها الله تعالى في هذا القرآن الذي بُدِئت السورة بذكره ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾، وخُتمت بالحديث عنه ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾.

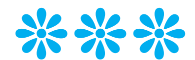
﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾ [سورة ق: ١]؛ أي الكريم العظيم الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [سورة فصلت: ٤٢]. ابتدأ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ السورة بالقسَم، والله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ لا يُقسِم إلا بعظيم، وجاء القَسَم بالقرآن وهو كلامه تعالى الذي أنزله على خير البشر، نبينا محمد عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ. «والقسم به دلالة على التنويه بشأنه؛ لأن القسَم لا يكون إلا بعظيم عند المُقسِم، فكان التعظيم من لوازم القسم»(١).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٧٦).






والقرآن واسع المعاني، عظيم الفوائد، جزيل البركات، والذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزَلها، ومن المعاني أعمّها وأحسنها. والمجد: سَعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يُوصَف بذلك هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأوَّلين والآخرين، وهذا مُوجِب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشُكر الله على المِنّة به[(١)].



(١) تفسير السعدي (ص٨٠٣).

بداية الغفلةِ الإعراضُ عن الحق والتكذيب بما جاء به الرسل

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾ [سورة ق: ٢]؛ استنكروا نبوة البشر، ولم تستنكر عقولهم سجودهم لِما صنعوا من حجر!

استنكروا أن يُبعَث فيهم نذيرٌ منهم، يأكل كما يأكلون، ويمشي في الأسواق كما يمشون، فعدُّوا ذلك عجبًا، لكنهم لم يعجبوا من أنفسهم وهم يسجدون لحجرٍ نَحَتته أيديهم!

وحين استنكروا استنكرت عقولُهم الأمورَ البديهية الواضحة.

لفتة:

هكـذا حال القلوب التي طُبِع عليها وأصبحت في غمرة، فهي تستعظم الحق وتستصغر الباطل.

ومَن تاقت نفسـه للحق واتّباعه، فعليـه أن يَزِن الأمور بميزان الوحي لا بميزان العادة وما تشتهيه نفسه!

لم يَقِف إنكار أولئك عند استنكار بعثة النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ،

بـل مَضَوا في إنكارهم واسـتبعدوا أعظم حقائـق الغيب، وأعظم مشهد من مشاهد اليوم الآخر وهو البعث والنشور، فقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ [سورة ق: ٣]، واستبعادهم وإنكارهم البعث هو جهل بعظمة الخالق عَزَّوَجَلَّ الذي خلَقهم من نُطفة، فهل يُعجِزه أن يعيدهم تارةً أخرى؟

ثـم يأتي الرد عليهم مُزلزِلًا لغرورهم، قاطعًا لشـكوكهم، بأن الله تعالـى محيطٌ بما تَـذروه الأرض من أجسـامهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾ [سـورة ق: ٤]، أي: ما تأكل من لحومهم ودمائهم وأشعارهم إذا ماتوا، يعني أن ذلك لا يَعزُب عن علمه[1].

وهذه الآية تبيّن عِلمَ اللهِ المحيطَ بكل شـيء، حتى بما تنقص الأرض من أجسـاد البشر بعد موتهم، وأنه لا يفوته شيء، بل كل شيء محفوظ في كتاب حفيظ.

وعبّر بالانتقاص دون التعبير بالإعدام والإفناء؛ لأن للأجساد درجات مـن الاضمحلال تدخل تحت معنـى النقص، فقد يفنى

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٤/ ١٥٧).

بعـض أجزاء الجسـد ويبقـى بعضه، وقد يـأتي الفنـاء على عامة أجزائـه، وقد صح أن عَجْب الذنَب لا يفنى، فكان فناء الأجسـاد نقصًا لا انعدامًا[1].

قوله تعالـى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [سورة ق: ٥-٦].

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [سورة ق: ٥]؛ ﴿مَّرِيجٍ﴾: أي: مختلِط.

قال قتادة في هـذه الآية: مَنْ تَركَ الحقَّ مَرج عليه أمرُه والتبَسَ عليه دينُهُ. **وقال الحسن:** ما ترك قومٌ الحق إلا مَرجَ أمرُهُم[2].

ومعنى اختلاط أمرهم: أنهم كانوا يقولون للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مرة: ساحر، ومرة: شاعر، ويقولون عن القرآن مرةً: سِحر، ومرة: مُفترًى، فكان أمرهم ملتبِسًا مختلِطًا عليهم.

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٨٣).

(٢) تفسير القرطبي (٢١/ ٣١٦).

وقال ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن مما يَفتح الله به على العبد في معرفة الأحكام الشرعية أن يكون مصدِّقًا موقِنًا، فكلما كنتَ مصدِّقًا موقِنًا، فاعلم أن الله سيفتح لك ما لا يفتحه لغيرك، وعليه: فالواجب على المرء أن يَقبل الحق فور علمه به؛ لئلا يقع في أمر مرِيج[1].

تأمل جيدًا...

لم يكن تكذيب القوم وإعراضهم نابعًا من جهل، بل كان عن علم وعناد وإصرار على الإعراض، فأصبحوا يتخبَّطون في حَيرة واضطراب، فإيّاك أن تُعرِض عن الحق، فتضيّع بوصلة قلبك وتَضطرِب بصيرتك، فتغرق في لَجَجِ الشك والتِّيه والحَيرة.

❊❊❊

(١) ابن عثيمين، اللقاء الشهري (١/ ٥).

دعوة إلى التفكر في مخلوقات الله تعالى

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [سورة ق: ٦]؛ أي: ما لها من فُتوق، أو شُقوق، وهنا دعوة للتأمل: أفلم ينظروا إلى هذا السقف المرفوع بغير عَمَد، قد رفعه الله بإتقان وزيّنه بإحكام، لا ترى فيه صَدعًا ولا نقصًا، بل آية من آيات الجمال والكمال!

وقد ورد هذا المعنى كذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [سورة الملك: ٣]، فإذا كانت السماء بهذا الإحكام والإتقان من صُنع الله، أفيَعجِز عن إحياء العظام وهي رَمِيم؟ فالإنسان يتفكر في صنع الله عَزَّوَجَلَّ وفي هذه الآلاء والنِّعَم التي أوجدها الله سبحانه، وهذا التفكر والتأمل في الخلق ليس تَرَفًا فكريًّا، بل هو طريق إلى الإيمان، وباب إلى الطمأنينة، وسبيلٌ إلى هداية العقول الحيرانة إلى الإيمان بحقائق أعظم، ومنها حقيقة البعث والنشور، والحساب، والجزاء، والميزان.

﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة ق: ٦]؛ استدل بالآيات الكونية على صحة الآيات الشرعية، والاستفهام هنا للتوبيخ، يوبِّخهم عَزَّوَجَلَّ لماذا لم ينظروا إلى السماء وما فيها من عجائب القدرة الدالة على أن الله تعالى قادر على إحياء الموتى الذي أنكره هؤلاء المكذِّبون، وقوله: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة ق: ٦] يشمل نظر البصر، ونظر البصيرة؛ نظرُ البصر يكون بالعين، ونظرُ البصيرة يكون بالقلب، أي: التفكر[(١)].

لا يحتاج ذلك النظر إلى كُلفة وشد رحْل، بل هو في غاية السهولة، فينظرون ﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ قُبَّة مستوية الأرجاء، ثابتة البناء، مُزيَّنة بالنجوم الخُنَّس، والجَوار الكُنَّس، التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا، ولا فروجًا، ولا خلالًا ولا إخلالًا. قد جعلها الله سقفًا لأهل الأرض، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.[(٢)]

---

(١) ابن عثيمين، تفسير سورة ق (ص٧٧).

(٢) تفسير السعدي (ص٨٠٤).

قد يقول قائل: إن كلمة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لا فائدة منها؛ لأن السماء معروفة أنها فوق، والحكمة في التنصيص عليها هنا الإشارة إلى عظَمة هذه السماء، وأنها مع عُلوها وارتفاعها وسَعتها وعظمتها تدل على كمال خلقه وقدرته جَلَّ وَعَلَا[1].

والتفكر في مخلوقاته عَزَّوَجَلَّ مما يؤدي إلى معرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **ومعرفة عظيم سلطانه** جَلَّ وَعَلَا، وتمام قدرته وحكمته، كما جاء في سورة الأعراف: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٥].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سورة سبأ: ٤٦]، الله يدعو إلى التفكر، كما جاء في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠]؛ أصحاب العقول الذين يتفكرون، ويُعمِلون عقولهم ويتأملون في خلق الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة يونس: ٦]، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ

---

(١) ابن عثيمين، تفسير سورة ق (ص٧٧).

وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

[سورة البقرة: ١٦٤].

فهذه الأمور تَزِيد من منسوب الإيمان، ومن أسباب زيادة الإيمان النظر في هذه الآيات الكونية والآيات الشرعية، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

ومِن أسباب نقصان الإيمان وضعفه: أن يُعرِض الإنسان عن التفكر في آيات الله، سواء الآيات الكونية والآيات الشرعية، قال عامر بن عبد قَيس: «سمعتُ غيرَ واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكُّر»[(١)]، فجمال السماء في عَليائها، وإحكام خلقها وصنعتها، دليلٌ بيِّنٌ على كمال صانعها وباريها. فهي صفحةٌ بديعة من كتاب الكون العظيم تَنطِق بجلال الله تعالى وكماله[(٢)].

---

(١) ينظر: الدرر المنثور (٢/ ٤٠٩).

(٢) هدايات القرآن الكريم، معالم التدبر، ط ١.

ثـم بعد ذلك آية أخرى من الآيـات الكونية، بعد النظر في بناء السماء المتقَن، ألْقِ ببصرك إلى الأرض، أسفل قدَمَيك، ثم تأمل الأرض التي تمشـي في مَناكبها وقد وسَّـعها الله وجعل فيها جبالًا لئّلا تَمِيد بأهلها وأنبت فيها من جميع الزروع والثمار: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ ٧﴾ [سـورة ق: ٧]، وفيه كذلك ردٌّ على أُبَي بن خلف الذي أخذ عظْمًا باليًا، وجعل يَفتُّه بيده، ويقول للنبـي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعدما رَمَّ؟ فقال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «نَعم ويبعثك ويدخلك جهنم». فكان هذا ردًّا عليه وعلى غيره من الذين أنكروا البعث.

فيا مَن تنكر البعث، إن الأرض آية لقلبك قبل بصرك! فكل ما علـى الأرض دليل على البعث من جديـد، انظر إلى كل زهرة في بستان، كل غصن في شجرة خرج مِن يبسٍ، كل ثمرة أينعت، فهذا بعث يتكرر أمام عينك في كل حين، والذي أحيا الأرض قادرٌ على أن يعيدك لحياة أخرى، ويعيدك للحساب والجزاء.

حَرِيٌّ بالمسلم أن يستلهِم من جمال الكون جمالَ خلُقه، ومن إحكام نظامه إتقانَ عمله وتجويده ابتغاءَ مرضات الله تعالى، ومن تنوع النباتات والزرع تنوعَ عطائه.

قولـه تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾ [سـورة ق: ٨]؛ المنيـب: الذي يرجع إلى الله، وهو المنتفع بالذِّكرى، «شـرط الله الإنابـة في الفهم والتذكير؛ فقـال تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾ [سورة ق: ٨]؛ وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ⑬﴾ [سورة غافر: ١٣]، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [سورة الرعد: ١٩]، فالذي آثـر غـرور الدنيـا على نعيـم الآخرة، فليـس مـن ذوي الألباب؛ ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب».(١)

بعـد أن ذكـر الله تعالى بعض آياته في الأرض وكيف بسـطها، وثبّتها بالجبال الراسيات، وهي ليست مجرد مشاهد جمالٍ تبهج العيـن، بـل هي آيات على قـدرة الله، ودلائل قاطعـة على البعث بعد الموت عرَض الحكمة من بسـطه هـذه الآيات، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧﴾ [سـورة ق: ٨]، فكانـت هـذه المشـاهد بصائر يهتدي بهـا العبد، وينظر بها إلـى كمال قدرة الله علـى البعث، لكن لا يتسـنى ذلك لكل ناظـر، وإنما خص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى؛ لأن المنيب هو الذي يرجع بقلبه إلى

---

(١) أبو حامد الغزالي، الإحياء (٢/ ٥٢).

بارئه، فيفتح سمعه وبصره لتلك المشاهد والآيات، فيتأثر وينتفع ويهتدي.

رسالة إلى قلبك:

لن تغيرك آيات السماء، أو مشاهد الأرض إن لم يتغير حال قلبك! أعِد النظر في جوهرك، فتِّش عن حال قلبك، هل تخشع جوارحك إذا رفعت بصرك إلى السماء؟

هل وجدت خشيةً عند رؤية الجبال الراسيات؟ وهل ذَرَفت عيناك عند رؤية زرعٍ شقَّ طريقه في أرض يَبابٍ؟!

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ [سورة ق: ٩]، وماء السماء مباركٌ كثيرُ الخير والنفع، وبه إحياءُ كل شيء، ومنه أنبت بساتين وحب الزرع الذي يُحصَد، فنِعمُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وآلاؤه الجسيمة تحيط بنا من كل جانب، ومن أعظمها نعمة الماء، الذي جُعِل منه كل شيء حي.

ضرب الله مثلًا على حتمية البعث والنشور كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

ومـن رحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ **أنه أحيا بالماء البـلادَ والعِباد**، وهذه كذلـك من الآيات التـي تَرُد على منكـرِي البعث والنشـور، بأن النفخ في الأجسـاد والخروج من الأجـداث والقبور مثيله إخراجُ الحيـاة من الأرض الميتـة، الأرض ماتت أليس كذلك؟ وأحياها الله بالمـاء، وقلوبنا تموت ويحييها الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بالإيمان وبنور القرآن وبالاهتداء بالقرآن.

ومضة:

كـم نحن في غفلة عـن كثير من النِّعَم التي نَرْفُـل فيها، تمر بنا قطـرات المـاء التي تعيـد الـروح في الأرض الجامـدة والنفوس الهامدة، لكن أرواحنا لا تَندى!

كم مرةٍ نسمع صوت الرعد ولا تهتز له جوارحنا!

كـم مرةٍ نـرى الأرض اهتـزت ورَبَت، وأنبتت مـن كل زوج بهيج، لكن قلوبنا لا تزال في غفلة!

همسة:

لقد كنتُ -في الأيام الخالية- في غفلة عن رؤية الجمال الرباني الذي يكسو تفاصيل الكون كله ... حتى وقفتُ عند هذه الآية وتأملتُها: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ [سورة ق: آية ٩] فاستيقظتُ ... اجعل قلبك كأرض طيبة، إن أصابها وابلٌ أزهرت إيمانًا، وأثمرت شكرًا، وأنبتت خشوعًا.

في هذه الآية يذكِّرنا الرب تعالى بمشهد مألوف، تراه أعيننا، ولا تبصره قلوبنا: مشهد نزول المطر من السماء. هذا الماء المبارك الذي يُنبِت جنّاتٍ وحَبَّ الحصِيد. مشهد فيه تذكير للعِباد بالذي أنزل ماء السماء المبارَك، فأحيا به الأرض الجَدْباء، وأحيا به قلوبًا بعد موتها، قادر على إحياء الموتى وبَعْثهم من جديد وإن تفرقت أجزاؤهم وتفتَّتت عظامهم.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ فكما أخرج النبات من الأرض الميتة، كذلك سيخرجكم ويعيدكم بعد موتكم.

قولـه تعالـى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾ [سورة ق: ١٠-١١].

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾ [سورة ق: ١٠]؛ ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ أي: طِـوال، ﴿طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾: ثمـر متراكِب، منضـود بعضه فوق بعض (قبـل أن يتفتح)، وقد خص الله تعالى النخل لأنها أشـرف الأشجار، ولهذا شُبِّه المؤمن بالنخلة[(١)].

يقـول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «إن مـن الشــجر شــجرًا مثلهـا مثـل المؤمن»؛ قال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ذهب الناس يَخُوضون في شـجر البوادي، يعني هل لهذه الشـجرة الفلانية فائدةٌ؟ فيقول ابن عمر: وقع في قلبي أنها النخلة، ولأنني كنت أصغر القوم، اسـتحيت أن أتكلم وأنا أصغرهم، فقال النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: هي النخلة»[(٢)].

فالمسـلم يكون كالنخلة، شـامخًا بدينه، معتزًّا بمبادئ الدين الحنيف، صاحب عطاء وجُود، والمؤمنة تكون كالنخلة، شامخةً معتزةً بدينها وبحجابها، وبطاعتها لربها.

---

(١) ابن عثيمين، تفسير سورة ق، (ص٨٠).

(٢) البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١﴾ [سورة ق: ١١]،

من رحمة الله بعباده أن جعل رزقه متاحًا للعباد، الكافر منهم والفاجر، ولم يَقصِر رزقه على الطائع المؤمن.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾: إنّ الذي أنزل الغيث، وأخرج من النواة نخلًا باسقًا، ومن الحَب سنابل تتراءى، وأحيا الأرض بعد أن كانت هامِدةً؛ لن يُعجِزه أن يحيي العظام وهي رميم، ويبعث الموتى من جديد؛ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [سورة فصلت: ٣٩].

فالعاقل حقًّا مَن لا تمرّ عليه هذه المشاهد دون أن يتحرك لها قلبه، بل يتفكر في تصريف الله لمُلكه، ويتأمل دلائل قدرته في الكون، ويستدل بها على كمال صفاته، وجلال أسمائه، وعظيم سلطانه في ملكوته.

همسة:

يـا مَن في غفلة مُعرِض: تذكَّر قدومك على الله، وأنك مبعوث كبعث الأرض، وأنّ إلـى ربك الرُّجعى، فهل أعددت لهذا اللقاء عُدّته؟



مصير المكذِّبين برسل الله والمعرِضين عن آيات الله

بعد عرض القدرة الإلهية في ملكوته عَزَّوَجَلَّ من إحياء الأرض، وإنزال المطر، يحذِّر الله تعالى الكفار من قريش ونُظَراءهم من أن يَنالهم ما أصاب الأقوام المكذِّبة السابقة إذا سلكوا مسلكهم في الإعراض والتكذيب، يقول تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾ [سورة ق: ١٢-١٤].

وهنا تذكير لكُفار قريش بما أحلّه بالأمم السابقة من عذاب وعقاب، رغم ما كانوا عليه من قوةٍ وبأس، وكثرةٍ في العدد، واتساعٍ في المُلك. فهؤلاء كانوا أشدَّ قوةً وأكثر جمعًا، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون؛ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [سورة غافر: ٨٢].

وقد ضرب الله مثلاً بقوم نوح الذين طال مُكثُ نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ فيهم، فدعاهم ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا، فما زادهم دعاؤه إلا فِرارًا،

فأُغرِقوا بالطوفان، وأصحاب الرَّس، وثمود، الذين أُرسِل إليهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فعَتَوا عن أمر ربهم وعقروا الناقة، فأخذتهم الصيحة.

وعاد، الذين أرسل الله إليهم هُودًا، فاستكبروا وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [سورة فصلت: آية ١٥]، فأهلكهم الله بريحٍ صرصر عاتية.

وفرعون، الذي بغى وتجبَّر، وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النازعات: آية ٢٤]، فأهلكه الله بالغرق.

وإخوان لوط، أصحاب الفاحشة، فأُهلِكوا بالحجارة المرسَلة من السماء.

وأصحاب الأيكة، قوم شعيب، الذين كفروا بعد النِّعم، فكان جزاؤهم عذاب يوم الظُّلّة.

وقوم تُبَّع، من ملوك اليمن، الذين مُكِّنوا في الأرض فأعرضوا، فأخذهم الله. كلّ هؤلاء: ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة ق: آية ١٤]

أي: وجب عليهم العذاب والنَّكال جزاء تكذيبهم، وثبت وقوع الوعيد الذي أنذرهم الله به، فحلّ بهم بأسه وانتقامه الشديد بعد أن أمهلهم وأنذرهم.





وفي هذا تسلية للنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ**؛ كأنه قيل له:** لا تحزن ولا تكثر غمك لتكذيب هؤلاء لك؛ فهذا شأن مَن تقدَّمك من الأنبياء؛ فإن قومهم كذَّبوهم ولم يُصدِّقهم إلا القليل منهم.(١) فذكر عَزَّوَجَلَّ من العذاب ما جاء في سورة العنكبوت؛ ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة العنكبوت: ٤٠].

ولنتعِظ بهذه الآيات، ولا يَغترّ أحد بما لديه من متاع الدنيا الزائل، أو قوة البطش؛ فمَن أعرض عن ذكر الله، وكذّب رسله، فمصيره لن يختلف عن مصير مَن سبقه، وإن اختلفت الأزمنة والأماكن. فليتأمل العاقل في السُّنن الربانية، وليعلم أن العِبرة ليست في كثرة المال أو قوة السلطان، إنما بالإيمان والتسليم بما جاء به النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ خاتم الأنبياء والمرسَلين.

حين قال المكذِّبون: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [سورة ق: آية ٣]، جاء الجواب هنا بسؤال تقريعي إنكاري، قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥/ ٨٧).

ﭐلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾ [سورة ق: ١٥]؛ أي: أفعجَزْنا عن خلقكم أول مرة حتى نَعجِز عن بعثكم؟! أفلا يُوقِن هذا الذي خُلِق من عدمٍ أن الله قادر أن يحيي عظامه وهي نَخِرة؟

وفي الصحيح: «قال اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يَكن ينبغي لهُ أن يُكذِّبني، وشتَمني ابنُ آدمَ ولم يَكن ينبغي لهُ أن يشتُمَني؛ أمَّا تَكذيبُه إيَّايَ فقولُه: إنِّي لا أعيدُه كما بدأتُه، وليسَ آخِرُ الخلقِ بأعزَّ عليَّ من أوَّلِه»[(١)].

مع وجود هذه الأدلة البارزة والبراهين الساطعة، لا زال كثير منهم في ﴿لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٥﴾﴾ [سورة ق: ١٥]؛ أي: في شك ورَيب، يترددون في قبول الحق والإذعان إليه، وما ذلك إلا بسبب الغفلة، واتباع الشهوات وهوى النفس الذي يَصُد صاحبه عن إدراك الحق الأبلج!

همسة:

لا تدع الغفلة تَقفل أبواب اليقين في قلبك، ولا تتركه نهبًا للشكوك والريبة!

(١) البخاري (٤٩٧٤).

سَعة علم الله المحيط والمراقبة الإلهية

ينتقل الخطاب من بيان قدرة الله تعالى على البعث والإحياء،

إلى بيان سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة ق: ١٦]؛ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾، جِيءَ بهذا الضمير بلفظ «نَحْنُ» على سبيل التعظيم، والله جَلَّ وَعَلَا هو المتفرِّد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وهو يعلم أحواله، وما يُسِره، ويوسوس في صدره وهو أقرب إليه من حبل الوريد، ﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: هُوَ حَبْلُ الْعَاتِقِ وَهُوَ مُمْتَدٌّ مِنْ نَاحِيَةِ حَلْقِهِ إِلَى عَاتِقِهِ، وَهُمَا وَرِيدَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطَّلِع على ضميره وباطنه، القريب منه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بالٍ، فيُجِلهم ويوقِّرهم، ويَحذَر أن يفعل أو يقول ما يُكتَب عنه، مما لا يرضي رب العالمين(١).

---

(١) تفسير السعدي (ص٨٠٥) بتصرف.

همسة:

أيها العبد، ألا يقرع قلبك هذا المشهد المهيب وأنت تعلم أن خواطرك الخفية يعلمها رب السماوات والأرض الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [سورة طه: ٧]، وهو أقرب إليك من نفسك التي بين جنبيك؟ وقُربه عَزَّوَجَلَّ هو قُرب علم وإحاطة وسلطان.

ألا تعلم أن همسات صدرك وما يجول في ضميرك لا يغيب عن العليم الخبير وهو الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١١٠]؟ فهل تراك بعد هذا تنتهك حرماته؟! وإن أغرَتك الخلوات، ألا يُخِيفك هذا القرب فتُقلِع عن الذنب وتترك المعصية وتتدارك قبل فوات الأوان؟

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [سورة ق: ١٦]، اعرض نفسك على هذه الآية؛ فالله أقرب إليك من حبل الوريد، أقرب إليك بعلمه وباطلاعه وبإحاطته بخلقه وقدرته على الناس، وكفى بهذه الآية واعظًا، ورادعًا عن المعصية والكف عن الذنب، والإنابة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وليحذر الإنسان أن يطَّلع الله على قلبه، فلا يجد فيه خيرًا، أو يجد فيه حسدًا أو بُغضًا لإخوانه المؤمنين، وليكن همُّ المؤمن إذا اطلع الله على قلبه أن يجده قلبًا منيبًا، متجردًا لله، منشغلًا بمرضاته، فيكون حاله ومآله إلى خير ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٧٠].

إنّ المقامات الرفيعة عند الله لا تُنال بكثرة الأعمال، وإنما بنقاء القلب الذي اطّلع الله عليه فوجده خالصًا له، منيبًا إليه، عامرًا بالإيمان.

فأهل بدر غفر الله لهم لما رأى في قلوبهم مِن صدق وثبات، وقال ﷺ فيمن شهد بدرًا: «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»[1].

وأهل بيعة الرضوان أثابهم فتحًا وسكينةً؛ لأنه علم ما في قلوبهم من ولاء وتسليم فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ [سورة الفتح: ١٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٠)، ومسلم (٢٤٩٤).

فطهِّـر قلبك، وتذكر: «أَنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُم ...»[1] واجعل أعظم أمنياتك: أن يطّلع الله على قلبك، فلا يرى فيه إلا ما يُرضِيه!

دعوة إلى المراقبة:

الله أقـرب إليـك مـن حبـل الوريـد، القريب منـك في جميع أحوالك، فليَسـتحِ العبد أن يراه الله حيث نهاه، إذا كان الله يعلم ما تخبئه الضمائر وما تخفي الصدور، فهو أعلم بالظواهر، المعاصي الظاهرة: تبرج وسفور واختلاط وفِتن أخرى.

قال أحد السـلف لابنـه: «إِذَا دَعَتْكَ نَفْسُـكَ إِلَى كَبِيـرَةٍ، فَارْمِ بِبَصَرِكَ إِلَى السَّـمَاءِ، وَاسْتَحِ مِمَّنْ فِيهَا، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَارْمِ بِبَصَرِكَ إِلَى الْأَرْضِ وَاسْتَحِ مِمَّنْ فِيهَا، فَإِنْ كُنْتَ لَا مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ تَخَافُ، وَلَا مِمَّنْ فِي الْأَرْضِ تَسْتَحِي، فَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي عِدَادِ الْبَهَائِمِ».

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُغْلِقُ بَابَكَ، وَتُرْخِي سِتْرَكَ، وَتَسْـتَحِي مِنَ النَّاسِ، وَلَا تَسْـتَحِي مِنَ الْقُرْآنِ الَّـذِي فِي صَدْرِكَ،

(١) مسلم (٢٥٦٤).

وَلَا تَسْتَحِي مِنَ الْجَلِيلِ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ!»[(١)].

وجاءت الآيات المبينة لهذا المعنى كثيرًا، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [سورة يونس: ٦١]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [سورة البقرة: ٢٣٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ [سورة الأحزاب: ٥١].

ومع إحاطة الله بخلقه، وسعة علمه، فإن من تمام عدله، وعظيم حكمته، ومن أجل إقامة الحجة على العبد، لم يَكِل حساب العباد إلى علمه وحده، بل جعل الله عَزَّوَجَلَّ مَلَكين على كل إنسان يحصيانِ عليه الأعمال، دِقها وجِلها، كبيرها وصغيرها؛ قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [سورة ق: ١٧ - ١٨] ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ قَالَ الْحَسَنُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ: مَلَكَانِ يَتَلَقَّيَانِ عَمَلَكَ: أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِكَ

---

(١) تنبيه الغافلين (ص٤٧٨).

يَكْتُبُ حَسَنَاتِكَ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِكَ يَكْتُبُ سَيِّئَاتِكَ. وجاء هذا المعنى كذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [سورة الزخرف: ٨٠]، أي: ملائكتنا عندهم يكتبون.

وجاء في موضع آخر قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الجاثية: ٢٨، ٢٩].

لا مفرَّ ولا مهرَب من حساب الله وعقابه. وإنك لَتعلم أن أنفاسك مرصودة وأعمالك مكتوبة، فعن يمينك مَلَك يكتب حسناتك ويقيِّد في صحيفتك ما ترفع به درجاتك. وعن شمالك مَلَك يدوّن زَلَّاتك، ويحصي غفلاتك.. وستقرأ صحيفة عملك بين يدي مَلِك الملوك يوم تُبلى السرائر.

وتذكَّر أن صحيفتك التي تُكتَب الآن، ستُعرَض بين يدَي الله غدًا، سيُقال لك: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [سورة الإسراء: ١٤]. سَل نفسك لو كُشِف الغطاء اليوم، ونُشرت بين الخلائق أعمالك، هل أنت راضٍ عنها؟

إذًا تأتي هذه الآيات تذكيرًا وتحذيرًا من خطر اللسان على صاحبه، فكم من كلمةٍ رفعت قائلها درجاتٍ وكم من كلمة كانت سببًا في الهلاك وأوبَقت صاحبها المُهلِكات والدرَكات! «وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ».(١) أفلا نَحذر ونحفظ ألسنتنا من الباطل وقلوبنا من الغل والحسد، ولنجعل نصب أعيننا ذلك المقام الذي قال فيه تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾ [سورة الحاقة: ١٨].

❋❋❋

(١) أخرجه البخاري (٦٤٨٧)، وأخرجه مسلم بنحوه (٢٩٨٨).

سكرات الموت والانتقال لعالم الآخرة

ثم انتقل سياق الآيات إلى مشهد آخر، يَغفُل عنه الكثير من الناس وهُم ملاقوه حتمًا. فبعد أن طُوِيت صحف الأعمال، وفَنَت الأعمار، يأتي هذا المشهد الذي لا ينجو منه مخلوق ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [سورة ق: ١٩]، وسكرة الموت هي غمرتُه وشِدته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله وتدُلُّه على أنه ميت(١).

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «لا إله إلا اللهُ! إنَّ للموتِ سَكَراتٍ»(٢).

وجاء في صحيح البخاري من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه لَمَّا ثَقُلَ النَّبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقالَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «وا كَرْبَ أَبَاهُ! فَقالَ لَهَا: ليسَ علَى أبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليومِ»(٣).

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، (٤/ ١٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٤٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (١١)، والبغوي في شرح السنة (٣٨٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٦٢).

فإذا كان سـيّد الخلق، وأكرم مَن وطئت قدَماه الثرى، قالها في تلك اللحظة، فكيف بنا نحن؟ أنا وأنت؟ وقد عَلَت قلوبنا القسوةُ وغمرتنا الذنوب!

جاءت سـكرة الموت التي لا مفر منهـا، وحينها إمّا أن يكون مصيـر العبد إلى رَوْحٍ وريحان وربٍّ راضٍ غير غضبان، وإما إلى ظلمة القبر وشـدة الحسـاب وسـوء الختام. ونعوذ بالله من ذلك المآل.

عبَّـر الله تعالى عـن المجيء بفعل ماضٍ مـع أن الكلام موجَّه للأحيـاء؛ وذلك للتأكيد على أن كل إنسـان سـيلقى الموت وهو حقيقـة حتميـة، بل إن الموت قريب من كل إنسـان وسـيأتي بَغتةً دون إشعار وإنذار.

وقـد وصـف الله تعالى شـدة الموت في مواضـع مختلفة من القرآن، منها:

* قوله تعالـى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [سورة الأنعام: ٩٣].

* وقوله: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ٨٣﴾ [سورة الواقعة: ٨٣].

* وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾ [سورة القيامة: ٢٦].

إنَّ الدنيا فانية، ومتاعها زائل، فالعاقل لا تُلهِيه دنياه عن الموت وسكراته، بل يتأهب ويتعِظ بحال مَن سبقه.

وقد رُوِي أن عيسى ابن مريم رأى الدنيا في صورة عجوز هَتْماء، عليها من كل زينة، فقال لها: كم تزوجتِ؟ قالت: لا أحصيهم، قال: كلهم مات عنكِ أو كلهم طلقكِ؟ قالت: بل كلهم قتلتُ، قال: فقال عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: بؤسًا لأزواجكِ الباقينَ، ألا يعتبرون بأزواجكِ الماضين، كيف تهلكينهم واحدًا واحدًا ولا يكونون منكِ على حذر؟![(١)]

وجاء في سنن ابن ماجه عن البراء قال: كنَّا معَ رسولِ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في جِنازةٍ، فجلسَ على شَفيرِ القبرِ، فبَكَى، حتَّى بَلَّ الثَّرى، ثمَّ قالَ: «**يا إِخواني لمثلِ هذا فأعِدُّوا**»[(٢)].

---

(١) ابن أبي الدنيا، ذم الدنيا (ص٢٤).

(٢) ابن ماجه (٤١٩٥).

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾ [سورة ق: ١٩]، لقد جاء الموت الذي كنت تُسلّي نفسك بالأماني عنه، تتجنّبه، وتُعرِض عنه، وتلهو عنه، جاءك وإن كنت في بروجٍ مشيّدة.

ولنا عِبرة فيما كتبه بعضُ السلف إلى أخٍ له: يا أخي، يُخيَّلُ لك أنَّك مقيم، بل أنتَ دائبُ السَّيرِ، تُساق مع ذلك سوقًا حثيثًا، الموت موجَّهٌ إليك، والدنيا تُطوى مِن ورائك، وما مضى من عمرك، فليس بكارٍّ عليك حتى يَكرَّ عليك يومُ التغابن[(١)].

وقال الحسن: الموتُ معقود في نواصيكم والدنيا تُطوى مِن ورائكم.

إن هذا الأجل لا مفرَّ منه كما قال ربنا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [سورة الأعراف: ٣٤]؛ كيف تفر من الموت وهو أمامك؟

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [سورة الجمعة:

(١) ابن رجب، جامع العلوم والحكم (ص٨١٥).

٨]؛ وإلى كل إنسان هذه الرسالة، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [سورة النساء: ٧٨]، بعد الحديث عن الموت وسكراته، تنتقل الآيات إلى مشهد أشد من الموت ومن سكراته، مشهد البعث وهَول المحشر ورهبة الحساب.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۝٢٠﴾ [سورة ق: ٢٠]؛ هذا يوم الوعيد الذي وعَده الله الكُفار أن يعذبهم فيه، فبعد انتهاء آجال الخلق، جاء يوم الوعيد، الذي أقسم الله بوقوعه، وأنذَر به عباده في كل كتاب أُنزِل، وعلى لسان كل نبي أُرسِل.

والنفخ هنا أي النفخة الثانية، نفخة البعث والنشور، وفي الحديث أن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**كيف أنعَمُ وصاحِبُ القَرنِ قد التقَمَ القَرنَ وحَنى جَبهتَه، وأصغى السَّمعَ متى يُؤمَرُ، قال: فسَمِعَ ذلك أصحابُ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشَقَّ عليهم، فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعمَ الوَكيلُ**»[١].

(١) أخرجه أحمد (١٩٣٤٥).

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة يس: ٥١ - ٥٤].

❊❊❊

موقف العرض والحساب، والوقوف بين يدَي الله عَزَّوَجَلَّ

ثم يأتي كل إنسان بَر أو فاجر ومعه مَلَكان: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾ [سورة ق: ٢١]؛ جاءت سَوقًا، لا طوعًا مع ملَك يسوقها إلى الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وشاهد يشهد عليها بما عملت، يقرُّ بما في الصحيفة التي لا تغادر كبيرةً ولا صغيرةً.

وإنه والله لَمشهدٌ مُفزِع، حيث يُساق العبد إلى المحكمة الإلهية، محكمةٍ لا تُظلَم فيها نفسٌ شيئًا، وإن كان مثقال حبّة من خردل.

قال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد من أنفسهم، وهي الأيدي والأرجل[١].

ومضة:

سيأتي يوم الوعيد الذي تُبدَّل فيه السماء غير السماء، وتُكشَف فيه الأستار، وتظهر فيه حقائق الخلائق، ثم يقال لمن كفَر وكذَّب: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [سورة المرسلات: ٣٥ - ٣٦].

---

(١) صفوة التفاسير (٣/ ٢٢٧).

سيأتي اليوم الذي تُساق فيه وحيدًا ليس معك محام يدافع عنك إلا عملك الصالح، تركت خلفك جاهًا وحسبًا ونسبًا، يومٌ سيُحشَر فيه الناس حُفاةً عُراةً، كما أخبر بذلك الذي لا يَنطق عن الهوى؛ محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**تُحْشَرُونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، لا يهتم أحد لشأن أخيه. قالَتْ عائِشَةُ: فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، الرِّجالُ والنِّساءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ؟ فقالَ: الأمْرُ أشَدُّ مِن أنْ يُهِمَّهُمْ ذاكِ**»[1]. فأعِد للسؤال جوابًا!

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة ق: آية ٢٢].

يُقال للمكذِّب هذا الكلام من باب التوبيخ والتعنيف: لقد كنت في الدنيا غافلًا عن أهوال يوم القيامة والوقوف بين يدَي الله، فكشفنا عنك اليوم حِجاب الغفلة، الذي كان في الدنيا يغشى قلبك وسمعك وبصرك.

فبصرك اليوم قوي نافذ، فأبصرت الحق وأيقنت، ولكن هيهات هيهات! فات الأوان، قَالَ تَعالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

(١) البخاري (٦٥٢٧)، وأخرجه مسلم (٢٨٥٩).

ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة السجدة: ١٢].

قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة ق: ٢٣ - ٢٦].

قال مقاتل: هو مَلَكه الذي كان يكتب عمله السيئ في دار الدنيا[١].

صفات المُلقَون في النار المستحقون للعذاب، وذُكِرت هنا سِت صفات:

كفار: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة ق: ٢٤]؛ أولًا كَفّار لِنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولحقوقه، كَفّار بدين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، بأسماء الله وصفاته، كَفَّار برسله وملائكته، كَفَّار بكُتبه وبلقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والبعث والحساب والجزاء،

عنيد: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة ق: ٢٤]؛ معانِد للحق جحودًا

(١) تفسير مقاتل (٤/ ١١٣).

وعنادًا، والعناد من الصفات الذميمة؛ التي تحُول بين المرء وقبول الحق، مهما أقِيمت الحجة، ولا يقبل الحق.

مَنَّـاع للخير ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [سورة ق: ٢٥]؛ ومع اعتدائه فهو مناع للخير، ويشمل هذا جميع أنواع الخير، يعم منعه للخير، كمنع إحسان إلى نفسك بالطاعات، لمّا تمنع نفسك من الطاعات، أو منع نفس من القُرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، منع النفس من الإحسان إلى الناس، فلا يكون الإنسان فيه خير لنفسه، أو خير لخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

مُعتَـد ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة ق: ٢٥] **مُعتَد على الناس ظَلوم غشوم، يعتدي باليد ويؤذي باللسان،** وذُكِر أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، منع بني أخيه عن الإسلام.

مُّرِيب ﴿مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة ق: ٢٥]؛ ﴿مُّرِيبٍ﴾: صاحب شك ورِيبة، وازداد قبحًا فاتخذ مع الله شريكًا يحبه ويغضب لأجله ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [سورة ق: ٢٦].

﴿۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [سورة ق: ٢٧ - ٣٠].

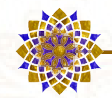
عند ذلك يقول القرين: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ وهو الشيطان المُوكل بملازمة الإنسان وإغوائه، يقول: ما كان لي عليه سلطان أو قوة، بل هو الذي ضلَّ وطغى بنفسه.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ. قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ»[1].

وعن عُرْوَةَ بن الزبير، أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حَدَّثَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا لَيْلًا، قَالَتْ: فَغِرْتُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أَصْنَعُ، فَقَالَ: مَا لَكِ؟ يَا عَائِشَةُ أَغِرْتِ؟ فَقُلْتُ: وَمَا لِي لَا يَغَارُ مِثْلِي عَلَى مِثْلِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ أَوَمَعِي شَيْطَانٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَمَعَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ،

(١) أخرجه مسلم (٢٨١٤).





وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ»[1].

وربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا في كتابه العزيز كيف سيتبرأ الشيطان من أتباعه يوم القيامة: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢]؛ فيقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وهنا يُنهي كل قول، قال: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ق: ٢٨-٢٩].

المقام ليس مقام اختصام؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعذر إلى الناس على ألسنة الرسل، وقد أنزل الكتب ووقعت على الناس الحُجَج والبينات، فلا ظلم الآن في هذا اليوم ولا جَور، فربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عدل لا يظلم أحدًا، فلا ينفع الآن أهل الباطل أو الضلال تخاصمُهم أو اعتذارهم يوم القيامة، فقد أُقيمت عليهم الحجة من قبلُ، والقول عند الله لا يُبدَّل.

---

(١) مسلم (٢٨١٥).

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ق: ٢٩]؛ فمن سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ التي لا تتغير: أن المحسِن يكافئ بالإحسان، فاللهم اجعلنا من المحسنين، فالله يحب المحسنين، وإن المسيء مستحِق للعقوبة، بلا شك.

أبطل الله تعالى حُجتهم ورد عليهم قولهم، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة ق: ٢٨]؛ قد أعذر الله تعالى إلى عباده على ألسنة الرسل وأنزل معهم الكتب وقامت الحجة عليهم، ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ قد قضيت ما أنا قاضٍ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة ق: ٢٩].

ثم تنتهي هذه المشاهد وهذا التخاصم ومحاولة تقديم الاعتذارات بوصف رهيب ومرعب لجهنم، وهي تحترق وهي تفُور وتضطرب، فيقول ربنا سبحانه: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة ق: ٣٠].

والنبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ **يقول:** «لا تَـزالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هلْ مِن مَزِيدٍ؟ حتَّى يَضَعَ فيها رَبُّ العِزَّةِ تَبارَكَ وتَعالَى قَدَمَهُ فَتَقُولُ:

قَطْ قَطْ وعِزَّتِكَ، ويُزْوَى بَعْضُها إلى بَعْضٍ»[1]؛ فهي لا تفتأ تطلب المزيـد من أنواع المشـركين والكفار العصاة، يحذر الإنسـان أن يكون من أهلها، نسأل الله السلامة، ونعوذ بالله من النار، ولهيبها، وسلاسلها، وأغلالها.



(١) مسلم (٢٨٤٨).

صفات أهل الجنة وما أعده الله لهم جزاء تقواهم

وبعد هذا الترهيب يأتي الترغيب بذكر نعيم المتقين وما أعده الله لهم، جعلنا الله منهم.

قولـه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سـورة ق: ٣١-٣٣]؛ «أُزلِفت» أي: قُرِّبت إليهم شرفًا وكرَمًا للمؤمن؛ الذي يتقرب إلـى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الدنيا، فتدنى منه الجنة وتقرب إليه مبالغةً في تكريم العبد المؤمن، والإنعام عليه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

تُقـرَّب لهم دون أن يتكلفوا مشـقة الوصول إليها؛ لأن الجزاء من جنس العمل، لما كانوا يتكلفون مشـقة السـعي إلى الجنة في الدنيا، فهي الآن تقرب إليهم، فإذا عانيت في هذه الدنيا فما عليك إلا أن تتأمل في وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ [سـورة ق: ٣٢]؛ هـذه الآيـة تبشّـر المؤمنيـن الذين يتوبون إلـى الله ويحرصـون على طاعته، بأنّهم سـيلقَون جزاءً عظيمًا في الآخرة، وهو دخول الجنة بسلام، مع ما فيها من نعيم دائم.

ووعدُ الله حاصلٌ لا محالة؛ فالإنسان يسعى أن يحفظ العهد، وأن يكـون دائمًا رجّاعًا أوابًا منيبًا إلى الحـق، حتى يفوز بجميل وعـد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي وعـد عباده المتقين، ويتذكر الإنسـان إذا ما خلا بنفسـه يومًا ودعَته إلى المعصية، فليذكرها بما أعد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للأوابين.

الأواب الحفيـظ: الذي كلما ذكَر ذنْبه، اسـتغفر ربه، ورجع، وعاد إلى الله.

قال قتادة: مطيع لله بكثرة... وكثير الصلاة حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته، وهذا جزاء أهل النعيم المقيم الذين يخشَون الرحمن بالغيب، فها هي أُدنِيَت لهم الجنة.

وأَهل الجنة هم الَّذين اتصفوا بِهَذِهِ الصِّفَات الْأَرْبَع: إِحْدَاهَا: أَن يكـون أَوَّابًـا، أَي: رجَّاعًا إِلَى الله من مَعْصِيَتـه إِلَى طَاعَته وَمن الْغَفْلَة عَنهُ إِلَى ذِكره.

وقال مجاهد: هو الذي إذا ذكَر ذنْبَه في الخلاءِ استغفَر منه، وقال سعيدُ بن المسيب: هو الذي يُذْنِبُ، ثم يتوبُ، ثم يُذْنِبُ ثم يتوبُ[(١)].

(١) التفسير البسيط (٢٠/ ٤٠٩).

الثانيـة: أن يكون حفيظًا، قال ابنُ عباس: لِمَـا ائتَمَنَهُ الله عليه وافترَضَهُ. وقال قتادةُ: حافظٌ لِما استَوْدَعَهُ الله من حقه ونعمته.

الثالثـةُ: قولُـه: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [سـورة ق: ٣٣]: يَتضمَّنُ الإقـرار بوجودِهِ وربوبيتِهِ وقدرتهِ وعلمِـهِ واطلاعِهِ على تفاصيلِ أحـوالِ العبـدِ، ويَتضمَّـنُ الإقـرار بكتبِـهِ ورسـلِهِ وأمـرِهِ ونهيِهِ، ويَتضمَّنُ الإقرار بوَعْدِهِ ووَعيدِهِ ولِقائِهِ؛ فلا تَصِحُّ خشيةُ الرحمن بالغيبِ إلَّا بعد هذا كلِّه.

الرابعـةُ: قولُـه: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [سـورة ق: ٣٣]، قال ابنُ عباس: راجعٌ عن معاصي الله مُقبِلٌ على طاعةِ الله. وحقيقةُ الإنابةِ عُكوفُ القلبِ على طاعةِ الله ومحبَّتِهِ والإقبالِ عليه.

ثـم ذكر سـبحانه جزاء مـن قامتْ بـه هذه الأوصـافُ بقوله:

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾

[سورة ق: ٣٤ - ٣٥][1].

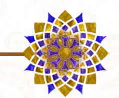
(١) الفوائد لابن القيم (ص١٨).

ثم سَـيُنادى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ٣٤﴾ [سـورة ق: ٣٤]؛ هذا الإنسان المؤمن الصالح الذي عاش في حياته، يحمل في قلبه حب الخير للناس، فهنيئًا الخلود في الجنات، بأمن واطمئنان.

قَالَ قَتَادَةُ: سَـلِمُوا مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَسَـلَّمَ عَلَيْهِـمْ مَلَائِكَةُ اللهِ. فالجنـة دار السـلام: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٢٧﴾ [سـورة الأنعـام: ١٢٧]، وأهلهـا إذا دخلوهـا دخلوهـا بسلام: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ٤٨﴾ [سورة الحجر: ٤٥ - ٤٨].

ويسمعون فيها السـلام والتسليم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [سورة الرعد: ٢٣، ٢٤].

قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ٣٤﴾ [سورة ق: ٣٤]، أي: يخلدون في الجنة لا يموتون أبدًا، ولا يبغون عنها حِوَلًا، وأما مسألة الخلود في الجنة في النعيم المقيم هذه فيها أحاديث كثيرة، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يُجاءُ بالمَوْتِ يَـومَ القِيامَة، كَأنَّه كَبْشٌ أمْلَـحُ، فيُوقَفُ بيْنَ الجَنَّةِ والنَّـارِ، فيُنادي مُنادٍ: يـا أهْلَ الجَنَّةِ، هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ فَيَشْـرَئِبُّونَ





ويَنْظُرُونَ ويقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكلهم قد رأوه، ثم ينادي: يا أَهْلَ النَّارِ، هلْ تَعْرِفُونَ هذا؟ قالَ: فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ ويقولونَ: نَعَمْ، هذا المَوْتُ، وكلهم قد رأوه، قالَ: فيُؤْمَرُ به فيُذْبَحُ»[١]؛ بل أهل النار يتمنَّون وقتها الموت ولا يلقَون العذاب الذي يرَونه، كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «يُنادِي مُنادٍ: إنَّ لَكُمْ أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبَدًا، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتُوا أبَدًا، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَشِبُّوا فلا تَهْرَمُوا أبَدًا، وإنَّ لَكُمْ أنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأَسُوا أبَدًا»[٢].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة ق: ٣٥]؛ فعطاء الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ممدود غير محدود، وكرمُه لا تحدُّه حدود، فهو يكافئ أهل الجنة بتحقيق كل ما يرغبون، وكل ما يشتهون ويزيدهم من فضله جَلَّ وَعَلَا أضعاف أضعاف ما يأملون؛ ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [سورة الزخرف: ٧١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ

(١) البخاري (٦٥٤٥).
(٢) مسلم (٢٨٣٧).

سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: آية ١٧]»(١).

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(٢)، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [سورة السجدة: ١٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٩)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩).

وأما المزيد فهو أعظم نعيم أهل الجنة، ألا وهو رؤية وجهِ الملك جَلَّ وَعَلَا.

عَنْ صُهَيْبٍ الرُّوميِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

❋❋❋

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد (١٨٩٤١).

لا ملجأ من الله إلا إليه

بعد عرض مشاهد يوم القيامة وما في ذلك اليوم من أهوال عظيمة تَقشعِر لها الجلود، ينتقل السياق إلى التعريض بتهديد المشركين والمعاندين، الذين جحدوا توحيد الله، وكذَّبوا رسوله، وأنكروا البعث والنشور، فبيّن الله تعالى أن إهلاكهم أمر يسير، كما أهلك قبلهم من الأمم المكذبة وقد كانوا أشد قوة وبطشًا، قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦﴾ [سورة ق: ٣٦].

أخبر الله تعالى عن الأقوام الذين تصرفوا في الأرض، شيَّدوا فيها القصور، ونحتوا من الجبال بيوتًا، وأقاموا السدود والحصون، وما إلى ذلك من مظاهر القوة في الأرض، لكن هل نفعتهم حصونهم المنيعة؟ كلا والله، فحين باغتهم عذاب الله، وفروا يبحثون عن مكان يتحصنون فيه، يلجؤون إليه، لم يجدوا! أغلقت دونهم أبواب النجاة، وانقطعت عنهم الحيل، فلا مهرب لهم من عذاب الله، ولن ينجي من سخط الله قوةٌ، ولا حيلة أو تدبير.

فهل من متعِظ من حال الأمم السابقة؟

وهل من معتبر؟

فلا يغتر الإنسان بقوته، أو جاهه وسلطانه وكثرة عياله، فلا مفر من الله إلا إليه، ولا ملجأ منه إلا إليه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ٣٧﴾ [سورة ق: ٣٧]؛ ولم يقل: (استمع)؛ لأن إلقاء السمع، أي: يرسل سمعه ولا يمسكه وإن لم يقصد السماع، أي: تحصل الذِّكرى لمن له سمع، وهو تعريض بتمثيل المشركين بمن ليس له قلب وبمن لا يلقي سمعه[(١)].

إن في تلك القصص موعظة يتعِظ بها كل عبد كان له قلب حي ويستمع وهو شهيد، أي: حاضر القلب، وأكثر من ينتفع بالتذكير والمواعظ هي القلوب التي تميل لسماع كلام الله.



(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٢٦/ ٣٢٤).





دلائل قدرة الله تعالى في الكون

قولـه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة ق: ٣٨]؛ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: ما مسنا من نصب ولا تعب. وهذا من الأدلة على كمال قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يُوجِد أعظم مخلوقاته من عدم، بدون تعب، وبدون نصب، ولو شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يخلق الكون كله في لحظة لفعل.



الصبر زاد الطريق

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة ق: ٣٩-٤٠]. فاصبر على ما يقولون من الذم لك، والتكذيب بما جئت به، واشتغِل عنهم والْهَ بطاعة ربك وتسبيحه أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل، وأدبار الصلوات؛ فإن ذكر الله تعالى مُسَلٍّ للنفس، مُؤنِس لها، مُهَوِّنٌ للصبر[1].

تأمل قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [سورة ق: ٣٩]؛ فإن أعداء الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسبوه إلى ما لا يليق به، وقالوا فيه ما هو منزَّه عنه، فأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يصبر على قولهم، ويكون له أسوة بربه سبحانه، حيث قال أعداؤه فيه ما لا يليق[2].

واستعِن على ذلك، أي: على الصبر -لأنه ليس بالأمر الهين- بالصلاة والتسبيح قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة ق: ٤٠]؛ فيشمل هذا الإرشاد

---

(١) تفسير السعدي (ص٨٠٧).

(٢) ابن القيم، إغاثة اللهفان (٢/ ٣٤٠).

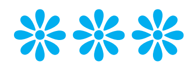



والتعليم الإلهي الصلوات المفروضات والنافلة.

لقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيّه بالصبر على ما يقوله المكذّبون، والاشتغال بذكره وتسبيحه في أوقات الفجر والعصر، وفي أوقات الليل، وأدبار السجود. وفي هذا إرشاد لنا أيضًا في مواجهة التحدّيات والابتلاءات.

ونِعم العون على الصبر الصلاةُ، ولذلك كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ إذا حزَبَه أمرٌ فَزِع إلى الصلاة، فسبِّح ربك متلبسًا بحمده، سُبْحَانَ اللهِ والحمد لله والله أكبر.

ومما يعِين على الصبر دوام التسبيح لله عَزَّوَجَلَّ وكثرة ذكره والصلاة.



البعث والعودة إلى الله

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢﴾ [سورة ق: ٤١-٤٢]؛ أي: استمِع أيها المخاطب يوم يُنادي المَلَك الموكَّل، وهو إسرافيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ينفخ في الصور، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين.

فعلى الإنسان أن يكون دائمًا في استعداد لنداء المَلَك للبعث والحساب، والمراد بالمكان القريب: بيت المقدس، وسُمِّي قريبًا لأنه قريب من مكة، وهذه السورة نزلت في مكة، وبيت المقدس ليس عن مكة ببعيد، وقيل: ﴿قَرِيبٖ﴾ أي: أنه مسموع لكل أحد بكل وضوح كأنه قريب منه.

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢﴾ [سورة ق: ٤٢]؛ الصيحة هنا هي نفخة إسرافيل الثانية، وهي نفخة البعث، والخروج من القبور. يخرجون من قبورهم مسرعِين، بعد تشقُّق القبور عنهم.

ومضة:

حين يسمع المرء النداء إلى الصلاة ويقوم إلى صلاته، وهي الزاد إلى الدار الآخرة، يضع صوب عينيه الموعدَ الذي سيلقى فيه ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو موعد الجزاء والحساب.

ولنتذكر أنه سيأتي يوم ينادي المنادي للقيام للجزاء لمن صبر وأطاع، والجزاء لمن أقام الصلاة في وقتها، وكذلك سيكون الجزاء على أهل الشرك والعصيان، فهذه الآية كذلك فيها تسلية للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتدعونا إلى الصبر والصلاة، ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [سورة البقرة: ٤٥].

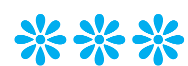
ثم يذكّرنا ربّنا جَلَّ وَعَلَا بقدرته المطلقة، فيقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة ق: ٤٣]؛ ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المتفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة هو وحده المتفرد بالتعظيم والعبادة.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

[سورة ق: ٤٤]؛ حين تشقق الأرض عن الأموات يخرجون منها

مسرعين إلى موقف الحساب، لا يلتفتون، لا يتأخرون، كما قال سبحانه: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [سورة القمر: ٨]، أي: مسرعين خاشعين لا يَنبسون ببنت شفةٍ، وبعثهم أمر هيِّن على الله، سهلٌ لا صعوبة فيه، وإن استعظمه الكافرون والجاحدون، إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون.

يا مَن تتلو هذه الآيات، اجعل قلبك يحيا بها؛ فهي من أعظم ما يذكِّر بالآخرة ويدعو إلى الإنابة والاستعداد للقاء رب العباد.



أثر القلوب الحية في الانتفاع بالموعظة

قولـه: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [سورة ق: ٤٥].

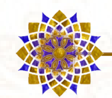
أي: يـا محمـد، لا يخفـى علينا شـيءٌ مـن أقـوال المكذِّبين وطعنهم، أو استهزائهم، وتكذيبهم لرسالتك؛ فإن علم الله تعالى محيط، وحكمه نافذ، ولكل منهم كتاب لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها.

تبيـن الآيـات أن النبـي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بُعِـث للتذكيـر بهداية الناس، وأنه ليس بذي قوة، وقدرة فائقة، يجبرهم بها على الإيمان والاسـتقامة، فليسـت مهمته عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الإجبار، فالهداية بيد الله وحـده، ومـا علـى نبيه إلا البـلاغ المبين، ولا تذهب نفسـك عليهم حسرات، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ [سورة ق: ٤٥]؛ فلن تستطيع أن تجبـر هـؤلاء الكفار علـى الإيمـان، أو على الاسـتقامة على الإيمان.

مَن لم يَعِظه القرآن ولا الشيب، فلو تناطحت بين يديه الجبال ما اتَّعَظ!

تُختَم السورة بأجمل توجيه وأعظمه، وهو التذكير بالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة ق: ٤٥]؛ ذكِّر به المؤمنين الصادقين والمسلمين الصالحين، مَن في قلوبهم خشية الله تعالى، يرجون رحمته ويخافون عذابه؛ فالمواعظ ينتفع بها أهل القلوب الحية، والمتدبرون للقرآن، فلست يا محمد بالذي تُجبِر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك ما كُلِّفت به، إنما أنت مبلِّغ، وما أنت عليهم بجبار، لكن القرآن يسُوق لنا البراهين والأدلة، لكل من كان له قلب، وكانت له بصيرة، وكل من كان له عقل، فمَن آمن فله الجنة، ومَن كفر فله العقاب، وهذا من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خلقه ومن تمام عدله عَزَّوَجَلَّ.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة ق: ٤٥]؛ خُتِمت السورة بأمر يلخِّص طريق الفلاح والنجاة في يوم تَشخَص فيه الأبصار، ولا ينتفع بمواعظه الجَمَّة، ولا يتدبر معانيه العظيمة،



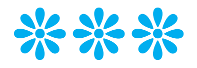



ولا يتشرب آياته الحكيمة إلا من كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وقال بعض السلف: «من لم يَعِظه القرآن ولا الشيب، فلو تناطحت بين يديه الجبال ما اتعظ»[(١)].

فالقرآن فيه بيان الحجة؛ التي بها نَقوى، والتي منه نستمد القوة، ولا يوجَد أنفع ولا أبلغ ولا أجمل من التذكير بالقرآن.

إن الانتفاع بالمواعظ له شروط، منها: أن يكون السامع صاحب قلب حي واعٍ، ينبض بالإيمان، وأن يلقي بسمعه كاملًا، أي: يُصغي بكامل انتباهه، وينصت بانكسار وتواضع، وأن يكون حاضر القلب، غير غافل أو لاهٍ، وإنما يستمع لآيات الله وكأنها تُخاطِبه وحده، فيخضع ويرتدع...



(١) التبصرة لابن الجوزي (١/ ١٠٨).

الخاتمة

الثبات على الطريق يحتاج إلى الصبر

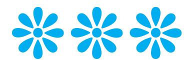
تعلمنا الآيات في ختام سورة (ق) وجوب الصبر، وكيف نستعين على تحقيقه بأعظم ركنٍ عملي في الإسلام، وهو الصلاة. فمَن أراد الصبر على طاعة الله، أو الثبات في طريق الدعوة، أو النجاة من الفتن والشبهات والشهوات؛ فليُكثِر من الصلاة والذِّكر والتسبيح، وأعظم الذكر تلاوة القرآن، وهذا هو زاد السائرين إلى الله.

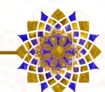
ختامًا:

لقد كانت هذه الرحلة عبر آيات سورة (ق) دعوةً لنا للتفكّر والتأمّل، والرجوع إلى الله بالتوبة والطاعة. فلنحرص على أن تكون هذه الآيات نبراسًا لنا في حياتنا اليومية، ومرشِدًا لنا في مواجهة تحدّيات الحياة، وسببًا في قلوبنا المطمئنة بذِكر الله المنتفعة بكلام الله.

نسأل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن يجعلنا من أهل قلوب الحية؛ التي تنتفع بالقرآن وبمواعظ القرآن، وأن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به قارئه وكاتبه، وأن يجعله حُجّةً لنا لا علينا، وذُخرًا في يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.







الفهرس

۞ تمهيد ٤

۞ بين يدي سورة ق ٦

۞ ما ورد في سبب نزول السّورة ٧

۞ سورة (ق) في المجامع الكبيرة ٨

۞ أهمية القرآن وأثره في إحياء القلوب ١١

۞ بداية الغفلةِ الإعراضُ عن الحق والتكذيب بما جاء به الرسل ١٣

۞ دعوة إلى التفكر في مخلوقات الله تعالى ١٧

۞ مصير المكذِّبين برسل الله والمعرِضين عن آيات الله ٢٩

۞ سَعة علم الله المحيط والمراقبة الإلهية ٣٣

۞ سكرات الموت والانتقال لعالم الآخرة ٤٠

۞ موقف العرض والحساب، والوقوف بين يدَي الله عَزَّوَجَلَّ ٤٦

۞ صفات أهل الجنة وما أعده الله لهم جزاء تقواهم ٥٤

۞ لا ملجأ من الله إلا إليه ٦١

۞ دلائل قدرة الله تعالى في الكون ٦٣

۞ الصبر زاد الطريق ٦٤

۞ البعث والعودة إلى الله ٦٦

۞ أثر القلوب الحية في الانتفاع بالموعظة ٦٩

۞ الخاتمة ٧٢

۞ الثبات على الطريق يحتاج إلى الصبر ٧٢

۞ الفهرس ٧٤

